

## من الحرفة إلى الإبداع الفني : تطور الفنون في أوروبا بعد القرن الخامس عشر

مايكل يانسن \*

تعدّ الموناليزا التي رسمها ليوناردو دافنتشي (1452-1519) إحدى أشهر اللوحات المعروفة في العالم ولوحات بابلو بيكاسو (1881-1973) (تباع في المزادات بملايين الدولارات. إن أروقة الفن في العالم مليئة باللوحات والتماثيل. والمتحف العمومي نفسه كان وليد القرن 19 بعد الثورة الفرنسية حين تم عرض المجموعات الفنية الخاصة بالملوك والنبلاء أمام أعين العموم. وفي زمن الحركة القومية التي اجتاحت أوروبا بعد ذلك تم تأسيس متاحف مشهورة مثل متحف اللوفر الفرنسي، والمتحف القومي البريطاني، وجزيرة المتحف الجرماني "Museumsinsel" بمتحفها ألتس Altes الشهير الذي شيده المهندس الألماني كارل فريدريك شنكل (1781-1841) (Karl Friedrich Schinkel). إلى جانب اللوحات والتماثيل كان يتم جمع وعرض الأثريات التي تم اكتشافها في مصر ومنطقة البحر الأبيض المتوسط وبلاد الرافدين. وكثيراً ما كانت رغبة الغربيين في جمع التحف تصطدم بسلطة الإمبراطورية العثمانية الشرقية التي كانت تحكم معظم مناطق الحضارات القديمة مثل بلاد الرافدين، ومصر، وتركيا، واليونان، والبلقان، وشمال أفريقيا. في مصر سمح النجاح الذي حققته حملة نابوليون ببلوغ الأهرامات وذلك سنة 1799م.

لم تكن المتاحف العمومية للقرن 19 الأماكن الأولى التي كانت تجمع فيها التحف الفنية، فقد كانت اللوحات والتماثيل حاضرة في البلاطات الغربية خلال العصور الوسطى ومنذ أن تم التداخل في اتصال مع الشرق -عبر الحروب الصليبية التي قادها الأباطرة الجرمان عند نهاية القرن 11 (الحروب الصليبية الأولى 96-1099)- أصبحت قطع غربية تشكل جزءاً من (الوندركمرن) (حجرة الخرائب) Wunderkammern " التي يتوفر عليها النبلاء (مثل الإمبراطور الروماني المقدس هنري الثاني 1576-1612).

مع تراجع مركزية الفكر القدسي المسيحي بدأ يتطور إحساس جديد في العالم المسيحي حيال الحضارات الوثنية القديمة للرومان والإغريق. وقد ظهر هذا الإحساس في أشكال شتى منها: جمع المخطوطات القديمة، وجمع التحف الفنية القديمة، ودراسة الفن المعماري القديم، بعد الأوبئة الخطيرة التي شهدتها أوروبا ما بين سنة 51-1347 والتي أتت على نصف ساكنتها تقريباً، تم إعادة ولادة الأمل في أعقاب التفكير الإغريقي حول عصر

الأساطير وذلك بعد اجتياز العصر الحديدي وظهور العصر الذهبي الذي أصبح فيما بعد معروفاً بعصر النهضة(2).

## المرجعية التاريخية، ع26/ص124

بعد أول اصطدام هام بين البابا (جرجور السابع Gregor VII) كسلطة دينية والملك الألماني الذي أصبح فيما بعد إمبراطوراً (هنري الرابع) (Henry IV) كسلطة نخبوية دنيوية في سنة 1077م (كنوسا Canossa الصراع حول تعيين الأساقفة ورؤساء الأديرة) ظهر تصدع في منظومة توحيد السلط في أوروبا، وكان من عواقبه -على سبيل المثال- الحروب الصليبية الأولى للقوات الغربية بقيادة غودفروا Gottfried وآخرين في 1096 ضد السلاجقة المسلمين لاحتلال مدينة أورشليم المقدسة. ولم تغير هذه الأحداث العلاقة بين المسيحية والإسلام فحسب؛ بل أيضا بين البابا والإمبراطور الألماني.

في سنة 1268م وبشكل حاسم ضرب عنق آخر الأباطرة الألمان المنحدرين من أسرة Hohenstauffen، كونردين (1252-1268) (Konradin)، في نابولي في ظل حكم شارل الأول، من أسرة الأنجو الفرنسيين، الذي استتجد به البابا كليمن الخامس. منذ ذلك الحين تم إضعاف نفوذ الإمبراطور إلى أن جاء شارل الخامس Charles V من هاسبورغ (1500-1552) (Hasburg) ومعه إمبراطور ألماني قوي جديد توج في سنة 1520م بكتدرائية أيكين Aachen ملكا للجرمان، وفي سنة 1530م فقط أعلن إمبراطورا في بولونيا من لدن البابا كليمن السابع بعد أن تم نهب روما في 1527 من طرف جيوشه المرتزقة (Landsknechte).

يبدو أن الرجوع إلى أوضاع القرن الثالث عشر وإلى إيطاليا كمعقل سابق لإمبراطورية الأرض والسماء -السلطة الدينية والدنيوية- نجد أن تغيير مقر البابا منذ 1305 حتى 1378م من روما إلى أفنيون Avignon بإلحاح من ملك فرنسا خلف فراغا في إيطاليا لم يكن من الممكن أيضا ملؤه من لدن الأباطرة الألمان، لأنهم كانوا في حالة ضعف. كان شارل الرابع (1316-1378) (Charles IV) من لوكسبورغ Luxemborg أحد أقوى هؤلاء الأباطرة في القرن 14، وقد ركز بشكل كبير على جنوب شرق الإمبراطورية الألمانية، واتخذ من براغ Prague مقرا له. وقد طبع وجوده بها فن معماري قوطي عجيب من إنجاز فناني أسرة بارلر Parler التي شيّدت -على سبيل المثال- الكتدرائية الشهيرة فايت Veit في براغ. وقد وجدت جامعة براغ الحديثة العهد دعما قويا في شخص شارل الرابع.

أفسح غياب البابا وعدم وجود الإمبراطور في إيطاليا -خصوصا في الجزء الشمالي منها- المجال أمام تطور لا-مركزي للمدن خاصة فلورنسه، سيينا، البندقية وبيزا، وأصبحت أغلب هذه المدن غنية من جراء التجارة مع المشرق وإفريقيا الشمالية كنتيجة للمعاملات التجارية التي ترتبت على الحروب الصليبية. وقد مكنت نشاطات تجارية قديمة عدة أسر تجارية من أن تصبح غنية مثل أسرة ميدتشي Medici في فلورنسه التي خرج

منهما فيما بعد بابوات، وأسر فسكونتي Visconti وسفورسا Sforza في ميلانو و غونزغا Gonzaga في منطوفا Mantova.

كان القرن 14 قرن حرب المائة عام بين فرنسا وإنجلترا، وقد قادت خلالها القديسة جان دارك (12-1431) الشهيرة الجيوش الفرنسية ضد الإنجليز بنجاح، غير أنها أحرقت في آخر الأمر كمهرطقة بعد أن سلمها بورغندي Burgundy للإنجليز. كان ذلك الزمان أيضا زمن المرأة الشهيرة كترينا من سيينا Catharina of Siena التي ذهبت إلى البابا في أفنيون تستجديه ليعود إلى روما، والتي توجت فيما بعد قديسة. في سنة 1378م عاد البابا إلى روما مهد الكنسية الكاثوليكية- لكن الانشقاق الكبير للغرب (ثلاثة بابوات في نفس الأوان) دام منذ 1378 حتى 1417م، ولم يتم تجاوزه إلا في اجتماع كونستونس (Constance) (1414-1418) حين عُين مارتن الخامس Martin V لُوحدده بابا. لكن الأوضاع كانت قد تغيرت، فبينما كان الأباطرة لازالوا يعانون الضعف، أسست عدة مدن مجالس تحكمها كقوى سياسية مستقلة. إضافة إلى هذا بدأت صورة مركزية العالم المسيحي تنهار من جراء أحداث شتى في القرن 14 مثل الطاعون. وقد ظهر المزيد ثم المزيد من المخطوطات الوثنية القديمة ومخطوطات كانت ترد ضمن اللائحة الكاثوليكية للكتب المحظورة، فاستطاع أهل الفكر قراءتها. ومن بين النصوص الشهيرة التي كان لها تأثير عميق على تطور الفن والفن المعماري خلال القرن 15 نجد نص الكتب العشرة عن الهندسة المعمارية للمؤلف الروماني مركوس بوليو فيتروف Parcus Pollio Vitruv (80 ق.م-15م) والذي أعيد اكتشافه سنة 1412م من لدن بوجو برتشوليني Poggio Bracciolini.

ونجد هاويا آخر مشهوراً بجمع الأدب الكلاسيكي وهو البابا بيوس الثاني، أنياس سلفيو بولوميني Aneas silvio Piccolomini الذي حول بعد توليه البابوية- بلدته كورسينيانو Corsignano بالقرب من سيينا سنة 1454 إلى أول مدينة (مثالية)، وهي حاليا مدينة بينزا Pienza التي تدخل ضمن لائحة الموروث العالمي لمنظمة اليونسكو. بعد إقامته لفترة في ألمانيا مثل أنياس بيكولوميني البابا في مجلس كونستونس سنة 1414م حيث تم إيجاد حل لإشكالية الانشقاق في السلطة البابوية يستمر بمقتضاه مارتين الخامس على رأس الكنيسة في روما. غير أن هناك حدث آخر جد هام غير العالم في القرن 15م. ويكمن هذا الحدث في توسع الإمبراطورية العثمانية الذي بلغ الذروة بغزو القسطنطينية سنة 1453م وما ترتب عن ذلك من انهيار للإمبراطورية الرومانية الشرقية. ربما كان هذا الحدث أحد الأحداث الأكثر تأثيرا في تاريخ الخمسمائة سنة الماضية. فغزوهم للقسطنطينية اعترض العثمانيون برا طريق الحرير القديم المؤدي إلى الشرق والصين والهند في وجه تجارة البحر الأبيض المتوسط مما ترتب عنه بحث دول المتوسطي عن سُبُل بحرية جديدة إلى هذه البلدان. وكانت أشهر محاولة للوصول إلى الهند عبر البحر هي تلك التي أقدم عليها كريستوفر كلومبوس Christopher colombus الذي اكتشف في سنة 1492م قارة جديدة هي أمريكا لحساب ملك إسبانيا بعد استرداد

غرناطة آخر معاقل الإسلام في شبه الجزيرة الإيبيرية. عند اكتشافه لأمريكا ادعى كولومبوس أنه اكتشف الهند لذلك لازال يطلق حتى اليوم على السكان الأصليين لهذه القارة الجديدة)هنودا(. وقد اعتمدت محاولته على معرفة اليونان القديمة باستدارة الأرض، وهي حقيقة يبدو أن الغرب المسيحي تناساها في العصور الوسطى. في ذلك الوقت كان يُعتقد أن مضيق جبل طارق(3) -الفاصل بين البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي- يشكل الطرف الغربي للعالم. خلافا لتفكير القرون الوسطى هذا أبحر غربا للوصول إلى الهند الواقعة شرق أوروبا، وبعد خمس سنوات فقط بعد وفي سنة 7/1498م اكتشف البحارة البرتغالي فاسكو ديكاما Vasco da Gama الطريق الحقيقية إلى الهند بالإبحار حول إفريقيا ورأس الرجاء الصالح مروراً بعمان لينزل باليابسة في كوشين Cochin جنوب الهند. بهاذين الحدثين المنبثقين عن اعتراض العثمانيين لطريق الحرير المؤدية إلى وسط آسيا بدأ العصر الحديث ومعه الهيمنة الاستعمارية لأوروبا الوسطى على كل الكرة الأرضية.

قبل ذلك بعقود، حين بدأت الإمبراطورية العثمانية تهدد العاصمة الرومانية الشرقية القديمة القسطنطينية، كان الناس يغادرون هذه المدينة إلى شمال إيطاليا؛ حيث وجدوا حفاوة الاستقبال في كنف أسر مثل أسرة ميدتشي بفلورنسه. إلى جانب الفارين من القسطنطينية عبرت معرفة العالم المتوسطي الكلاسيكي القديم، بفلسفته ومعارفه العلمية إضافة إلى المعرفة باللغة اليونانية القديمة وكتابتها إلى العالم الكاثوليكي لشمال إيطاليا. هنا في فلورنسه حالما تم تأسيس مدرسة الفكر الأفلاطوني المحدث، وقد وجدت هذه دعماً حقيقياً في البورجوازية الحاكمة. كانت هذه الحركة جد قريبة من شخصية مرسيلىو فيتشينو (1499-33) (Ficino) الذي حاول صهر التفكير الأفلاطوني المحدث في العالم المسيحي. وكان أول من ترجم مخطوطات أفلاطون من الإغريقية إلى اللاتينية (1484) وأيضاً هرمس Hermes Trismegistrus وأسس الأكاديمية الأفلاطونية بفلورنسه.

**الفنون السبعة: النحو-الشعر-البلاغة-الرسم-النحت-الفن المعماري-الموسيقى،**  
ع26/ص128

انطلاقاً من (تسرب) المعرفة الكلاسيكية القديمة تم التهيؤ في إيطاليا أيضاً لتغيير مركزية الفكر المسيحي للعصور الوسطى الراض لكل ما هو خارجي، ويمكن البرهنة على هذا من خلال آداب القرن 14م لدانته الياري (1265-1321) (Dante) فرنشسكو بترارك (1373-04) (Petrarca) وجوفني بوكاتشو Boccaccio وآخرين. تم تحفيز (تسرب) المعرفة القديمة هذا، دون أن ننسى بالطبع المرجعية التاريخية وكون البابا قصى تقريباً تمانين سنة من المنفى بأفينيون في فرنسا، أيضاً بسبب انطلاقة دراسة البقايا المعمارية الرومانية خاصة في روما حيث كان تشكل الهندسة المثيرة للكولوسيوم (Colosseo) Colosseum) والبانتيون Pntheon بقبته الهائلة التي يبلغ قطرها 43 متراً وأبواب النصر من بقايا الفروم Forum الروماني إلى آخره شهادات حية على ماضٍ وثني لكنه عظيم.

وفي فترة مبكرة من حكم فريديريك الثاني (1194-1250) (Frederic II) بجنوب إيطاليا عبرت المعرفة القديمة بشكل غير مباشر إلى إيطاليا عبر الإسلام، الذي انتهل بالخصوص من العلوم الطبيعية والمعرفة الطبية لجنوب العالم المتوسطي؛ حتى أنها أصبحت جزءاً من الحياة اليومية للشعوب الإسلامية. تمكن البرهنة على التأثير المعرفي المباشر للإسلام على سبيل المثال من خلال مدرسة سالرنو (Salerno) (القرن 10-13) التي استفادت كثيراً من المعرفة العربية في ميدان الطب.

لذلك فإن النتائج البديهية الأولى لما يعرف بالنهضة كما تبدو على المستوى المعماري في بنائة (بيت الأبرياء) (بيت اللقطاء) بفلورنسه الذي شيده فلبو برونيلسكي (Brunelleschi) (1377-1446) سنة 1419م ليست في الحقيقة إلا- مظهراً لحركة روحية طويلة الأمد بدأت في أوائل القرن 14 وأخذت تتجاوز تدريجياً مركزية الفكر المسيحي متحركة نحو الاتجاه الجديد للنزعة الإنسانية في البدء، ثم حركة التنوير فيما بعد للانتهاء عند الأفكار المعاصرة عن الوجود والمجتمع. من المدهش ألا- تكون أول مَعْلَمَة معمارية لعصر النهضة قصراً أو كنيسة ولكن بيتاً للأبناء غير الشرعيين الذين تتخلى عنهم (4) أسرهم وأمهاتهم. ليس برونيلسكي وحده المعروف باسمه؛ لكن أيضاً كل المهندسين المعماريين الذين جاؤوا من بعده. لقد بدأ العصر الذهبي (الجديد) الذي لم يعد فيه منتج الفن المعماري -اللوحات الفنية: الرواسم والتماثيل- مجرد حرفيين مغمورين؛ لكن أصبحوا أفراداً لهم إدراك واعتزاز بالذات ينظر إليهم كفنانيين كبار يستحقون التقدير ويحصلون أجوراً عالية.

## ما الذي حدث؟، ع26/ص129

استمراراً للتغيير الكبير الذي شهده القرن 14 وامتد إلى القرن 15 بتأثير من التفكير الأفلاطوني المحدث (انظر فيتشينو في فلورنسه) عرفت بعض أسس العلاقة بين حرفيي العصور الوسطى وفناني عصر النهضة تغييراً. فحسب الكتاب المقدس خلق الله العالم (انظر سفر التكوين) وكانت قمة خلقه الإنسان الذي زرع فيه الروح. وحسب تفكير ومعتقدات العصر الوسيط فإن الإنسان لا يتوفر على ذاتية مستقلة عن إرادة الله. لذلك فإن أي محاولة يقوم بها لتصوير العالم (رسماً أو نحتاً إلى آخره) لابد لها أن تبقى غير كاملة، ويستحيل لها أن تصل إلى كمال المخلوقات الإلهية. بسبب ذلك فإن فنان العصر الوسيط رغم كل كماله أدائه يبقى هاوياً، مجرد مقلد للطبيعة. من وجهة نظر فلسفية بدأ الوضع يتغير مع ظهور الفن والهندسة الطوقيين. كانت هذه الأخيرة تقبع تحت التأثير القوي (لخبايا النور) كما وصفها ديونيسيوس الأريوباجي Dionysius Areopagita، وتم التعبير عنها في الفن الطوقى الأول في ظل أبوت سوغر Abbot Suger في سنة 1134م بخليج سان دوني بالقرب من باريس. هنا انتقل المهندسون والفنانون من وضعهم كحرفيين بسطاء إلى فنانيين يعبرون عن أحاسيسهم وعن الأفكار الموحات لهم. كانت تلك أيضاً الفترة التي بدأت ترد فيها الإشارة إلى الأسماء الأولى للمهندسين والفنانيين؛ لكن للدلالة فقط على أعمالهم، وليس لتقدير حرفهم كفنانيين متميزين ومبدعين.

بطبيعة الحال وتحت تأثير التفكير الأفلاطوني المحدث الذي نزع في الأصل من العاصمة الرومانية الشرقية القسطنطينية، شكل مفهوم أفلاطون للفكرة (5) -كشيء أصلي مبتدع، وليس بالبداهة من عطاء الله، لكن كجزء من إبداع الإنسان نفسه- أحد أسس الوضع الجديد للفنان في المجتمع الجديد للقرن 15 حتى يومنا هذا. من الآن فصاعدا لم تعد المهمة الأساسية للفن هي تقليد الطبيعة في تصوير بسيط لها؛ لكن الفن أصبح إبداعا في حد ذاته يأتي به الفنان كخلق لشيء جديد (بالألمانية: Schopfung). كانت هذه هي الفترة التي فقد فيها تصنيف العالم القديم للفنون إلى فنون عقلية Artes liberales وفنون ميكانيكية Artes Mechanicae بعضا من مقوماته. الآن انتقل الفنان المبدع -سواء أكان رساما، أم نحاتا، أم مهندسا- من الوضع الاجتماعي لمجرد حرفي ومقلد للطبيعة إلى الوضع الاجتماعي للنبلاء والمبدعين أنفسهم. يرد هذا بوضوح في حياة الفنانين لفراري Vazari وهو عبارة عن لائحة بأسماء الفنانين ونبذة عن ترجماتهم صدرت في منتصف القرن 16م. أصبح الفنانون منذ القرن 15م أعضاء داخل البلاطات الأوروبية المختلفة تؤدي لهم أجور عالية، وينجزون لوحات شخصية للنبلاء وهو ما كان مستحيلا في القرون الوسطى؛ إذ لم يكن يسمح إلا بتجسيد مواضيع دينية. لم يعد بيتر بروجل Peter Bruigel في رسومه لحياة الأرياف يصور جمال المخلوقات الإلهية، وإنما بشاعة وفقر الحياة الحقيقية للفقراء.

انتقلت حركة النهضة التي بدأت في فلورنسه بسرعة إلى أجزاء أخرى من أوروبا. مع اختراع فن الطباعة سنة 1451م من لدن غوتنبرغ Gutenberg في مدينة ماينز Mainz الألمانية انتشرت المعرفة حول التفكير الجديد بسرعة. في مجال الهندسة والتخطيط الحضاري أصبحت الكتب العشرة لفرتروف Vitrov -التي ترجمها وعلق عليها ونشرها ألبرتي Alberti- أساس التخطيط للمائة وخمسين سنة التالية. وقد سافرت هذه الكتب على ظهر السفن إلى أمريكا، والهند، والصين. وشيدت الكنائس الجديدة لغوا Goa تبعا للمعطيات الواردة فيها، كما شيدت على أساسها مدن في المكسيك والصين.

لما نهبت جيوش شارل الخامس روما سنة 1527م لم تحمل معها فقط غنيمة كبيرة؛ بل إن الفنانين تبعوا الإمبراطور إلى هولندا حيث ولد في جننت Gent فشيده مهندسون عظام أمثال باسكوليني Pasqualini مواقع دفاعية جد محصنة بالمدن، وقد تأثر الفنانون الهولنديون بشكل كبير بالفن الإيطالي. وغادر فنانون آخرون من عصر النهضة -أمثال ليوناردو Leonardo - إيطاليا إلى فرنسا للالتحاق ببلاط فرانس الأول Franz I عدو شارل الخامس.

حدث فقط في 1517م أن عارض مارتن لوثر Martin Luther البابا الكاثوليكي الذي كان يبيع صكوك الغفران لجمع المال قصد بناء الكنيسة الجديدة للقديس بطرس بروما. وترتب على هذه المعارضة انفصال الكنيسة البروتستانتية عن الكنيسة الكاثوليكية، مما قاد إلى حرب رهيبة دامت ثلاثين سنة (1518-1648).

يعدّ رامبراندت فان رين الذي عرضت أعماله من لدن مكتبة السالمي بمسقط نمونجا حيا  
لفن القرنين 16 و 17م حين بلغت الفردانية كتعبير عن الوجود الذاتي للإنسان أوجها في  
خضم فوضى الحروب.

\*\*\*\*\*

## مراجع

- Assunto, Rosario 1982: Die Theorie des Schönen im Mittelalter, Koln.
- Claussen, P.C.1981 Fruher Kunstlerstolz, Mittelalterliche Signaturen als Quelle der (HRSG) 1981, Bauwerk und Bildwerk im Hochmittelalter. Gieben.
- Grassi, E.1980 , Die theotie des Schönen in der Antike, Koln.
- Kris, E. ;Kurz, O. 1934: Die Legende vom kunstler. Wien.
- Keller, H. 1984: Blick vom Monte Cavo. Kleine Schriften. Frabkfurt.
- Natorp, P.1930: Platons Ideenlehre.
- Panofsky, E.1980: Studien zur ikonologie. Koln.
- Panofsky, E.1965: Renaissance and Renaissances in western Art. Upsala.
- Ross, W.D 1951: Plato's Theory of Ideas.
- Vasari, G.1550: le Vite delle piu eccellenti pittori, scultori, ed architettori (Lives of the Moste Excellent Painters, Sculptors, ad Architects).
- Warnke, M.1985: Hofkunster. Zur Vorgeschichte der modernen kunstler. Koln.

\*\*\*\*\*

## الحواشي

(\* بروفسور ألماني، جامعة آخن ألمانيا.

1 - هناك إشكاليات لغوية تتعلق بمصطلح (Kunstler) في الألمانية والذي ربما يعني

الحرفي (Artiflex من اللاتينية Ars) وكذلك أيضا الفنان (لتوفره على نفس الجذر اللاتيني) علاوة على كون Artifex حرفيا فهو أيضا مبدع وخلاق. انظر على سبيل المثال اسنتور. Assunto.R 117:1982 .

2- انظر فزاري (11-1574) جاء بمصطلحات (قوطي) و (النهضة) كان أيضا أول من كتب سير مختلف الفنانين (1551).

3- أعمدة هرقل.

4- يمكن فهم هذا لأن 50 سنة فقط قبل ذلك هلك ما يزيد عن نصف ساكنة أوروبا بسبب الطاعون. إلى يومنا هذا لا زال يعتني بالأطفال المتخلى عنهم من لدن الراهبات في دير بالقرب من فلورنسه.

5- انظر: (Gastmal) أفلاطون.